محارب الحانة



قد نوجد نار عظيمة في أرواحنا، لكن لا يأتي أحد ليستدفئ بها، ومن يمرون بنا لا يرون إلا خيطاً رفيعاً من الدخان

فنسنت فان جوخ

محارب الحانة

كانت هيئته توضح حالته التي وصل لها، رمحه، الذي يضرب السقف لطوله، أصبح باليًا، وتكسرت حادة رأسه من كثرة ضربه بالأرض والسقف، واهترأت بدلته العسكرية، فتغير لون الدم فيها الى بقع سوداء ضخمة تتخلل بين أضلاعه وبين صدره، وامتلأت أنفه بغبارها، فصار العطاس والرشاح ملازمًا لأنفه، فصارت حمراء مثل حبة الفراولة، رغم أنها لا تشابهها في شيء، فالفراولة صغيرة ولطيفة، عكس أنفه الطويل الذي أمتد ليغطي شاربه الكثيف، وامتلأت الأخاديد في أنفه فصارت واضحة من بعد مقعد أو اثنين، وكان كعادته.. سكيرًا من الدرجة الأولى، رغم أن هذه الحالة حديثة، لم تتجاوز السبعة أشهر، لكنه خلالها صار زبون الحانة الأوفى، كل يوم، يدخلها مع الافتتاح، وأصبح "خوسيه" صاحب الحانة يأتمنه عليها، ولا ريب أنه نام يومًا أو أثنين فيها لشدة سُكره.

ما أن دخل يهوذا للحانة، وجلس على المقاعد المقابلة حتى صفق بيده ليحضر للنادل نحوه.

- ما طلبك يا سيدي؟ قال النادل.
- ما المتوفر؟
- سوفنيون، ميرلو، شيراز، فينوار، والعديد العديد، هل تريد نوعًا محددًا؟

- هل يتوفر كيناتي؟
- اوه، إيطالي! طبعًا. سأحضره الآن.

كان ماتفي يمسك برمحه ويشاهد يهوذا بجحوظ، ثم قفز نحوه، وكان قصيرًا، ما دفعه للإمساك بالطاولة ليصعد للكرسي المرتفع، وبقت قدميه معلقةً في الهواء تصطكان ببعضهما البعض، ظل ينظر له بجحوظ، ارتبك يهوذا: ماذا تريد؟ من تكون؟

- أقسم بذلك! صاح "ماتفي".
- ماذا هناك؟
- أقسم بذلك! صاح مرة أخرى.
- بماذا؟! وكان قد طفح كيله.
- أنت تشبه أبي!
- حقًا؟ كيف؟ أنا أصلع، وقمحي البشرة، وكذلك لدي أنف كبير.
- أما الصلع، فقد حلق رأسه قبل أن يذهب، وكذلك هو مثلك في البشرة، لقد أرسل لي صورة له: التراب يغطيه حتى أصبح كلونه، وأنفه أكبر منك. ضحك، وبانت أسنانه الصفراء المكسورة النتنة.

ما دفع رائحة فمه الى الانتشار في وجه يهوذا وجعلته يغلق انفه بيديه. وهتف فيه: متى اغتسلت آخر مرة! رائحتك ستقتل خنزيرًا مغطى بالوحل. وكانت ردة فعل ماتفي غريبة جدًا: حيث نزل من على الكرسي، وأمسك

برمحه وجعل يستعرض بعض الحركات الاستعراضية ويوجه الرمح نحو يهوذا، ما دفع يهوذا لرفع يديه، ثم هتف ماتفي وسط الحانة مسمعًا الجميع: لا وقت للاغتسال، المحاربون ليس لديهم الوقت لمثل هذه الأفعال التي لا نفع لها في ساحة المعركة.

وكانت ردة فعل الحانة بأكملها هي الضحك، حتى يهوذا، وحتى ماتفي نفسه، كان يضحك ويحك مؤخره رأسه، ثم هتف أحد الجالسين في الحانة والذي يبدو أنه من سكان هذه القرية: هي! ماتفي، أخبر الزائر عن مغامرتك في غابات سيبيريا، عن الغول الذي واجهته.

وهتف ماتفي مسمعًا الجميع: سأخبركم يا رفاق، لأول مرة! عن قصتي وإحدى مغامراتي في غابات سيبيريا، ولن تصدقوا ما وجدت هناك، وجدت غولًا ضخمًا فمه يتسع لخمسة خِراف!

وعبرت ضحكة من بلاهته على فم يهوذا، وهز رأسه مستنكرًا هذه القصة، لكن ما أن انتبه له ماتفي وجهر: وأقسم يا سيدي العزيز ذو القبعة السوداء -وكان يشير ليهوذا- أن هذه القصة حقيقة، أقسم بشرف أبي "ليونيد" على ذلك!

- حسنًا إذن، أسمعنا! قال يهوذا.

كانت رحلة طويلة، كنت في سيبيريا في رحلة استكشافية، كنا نبحث عن الذهب أنا وعدد من الأصدقاء الذين ماتوا في تلك الرحلة، رأينا أشياء لم نرها في أي مكان، أشجار يزيد طولها عن الألف قدم، وأحجار تتشكل على أشكال الحيوانات، ورأينا بومةً زرقاء تتحدث لحرباء دائمة التّلون، هل تعلم ما شاهدنا أيضًا، جماجم كثيرة، لأشخاص كانوا قبلنا، خاف صديقيّ لكن أنا كالأسد، لا أخاف من شيء، وحين مشينا في الغابات ووصلنا لعمقها، ظهرت لنا خيمة من القش، يخرج منها أصوات شخير مزعج، وما أن دخل صديقي أجاني، حتى صرخ فزعًا، فهرب صديقي الآخر، لكنّي وقفت شامخًا، واستللت رمحي ودرعي، وحينها، خرج غول ضخم يمسك بيديه جثة صديقي أجاني!

ووقف عندها، وشرب مشروب أحد رجال الحانة ممن يعرفهم، ثم قالوا له: وماذا حدث بعدها؟ وصرخ ممسكًا رمحه، اخترق هذا الرمح عينه، فبكى! وضحك الجميع على ذلك. لكنه ما أن أجاب غاضبًا: لا تصدقون أيها الملاعين، أقسم بذلك! لقد غرست الرمح في عينه، فبكى ألمًا، ثم طار بجناحيه، كانت أجنحته بحجم أذنه، لكنه سريعة الرفرفة، ولها صوت مزعج يصم الآذان، وبعد أن هرب وطار، دخلت للخيمة، فوجدت ذهبًا عظيمًا، لكن لم آخذه، لأن الفارس والمحارب لا يأخذ غنيمة، يكتفي بالفخر!

كانت تلك الكلمات تلهم الجميع، رغم عدم تصديقهم له، لكن كانت كفيلة بنشر الشجاعة فيهم. عدا يهوذا، فبعد استغرابه من الوضع الغريب،

وعدم تصديق ما قيل، صرخ فيهم: يا بلهاء! كيف تصدقونه؟ إنه يهذي! فاستجاب لنزاله ماتفي، ووجه الرمح نحو صدر يهوذا وصرخ فيه: هل تقول أنني أكذب؟! لقد أقسمت بشرف أبي يا ملعون! أبي ليونيد! ليونيد!! وضل يصرخ وينادي على أبيه ليونيد حول الحانة، يقفز من طاولة لأخرى، حتى إذا ما وصل لزاوية ضيقة، ارتطم رأسه بقطعة خشب تتدلى من السقف القصير، فتهاوى أرضًا، وجعل يئن أنينًا كالثور، ثم قفز غاضباً، وجعل يضرب قطعة الخشب المتدلية برمحه، ضربات متتالية، بكل ما يملك من قوة، وكان الجميع يضحك من ذلك، الذي أمسك بطنه من شدة الضحك، والذي سقط أرضًا، وهناك البعض ممن ترك الحانة، أما ماتفي فقد كان يصرخ كأنما يقاتل الشيطان، ويضرب قطعة الخشب بخشونة شديدة، ويصرخ ويشتم فيها، وحين سقطت قطعة الخشب أرضًا، أمسكه بيديه، وهشم ما تبقى منها، أمسك بالقطع الصغيرة ووضعها في فمه، وضل يعض فيها حتى سال الدم من فمه!

تغيرت تعابير الجميع، لم يفعل هكذا سابقًا، ما الذي حدث له؟! ومما زاد الأمر سوءًا امساكه برمحه ومحاولة طعن نفسه! لكن كان هناك من هو بالمرصاد... دخل على أصوات الصراخ والضحك والصياح، سريعًا!

- يا ملاعين! تجعلون هذا المسكين يترنح ألمًا وأنتم كالنساء لا تتحركون، أخرجوا يا كلاب! وأطلق طلقة في السقف، جعلت كل من كان في

الحانة يفر بجلده هربًا، وما عاد في الحانة سوى ماتفي، يهوذا، وهذا الرجل.

من تكون؟ تساءل يهوذا. فأجاب بغضب: صاحب الحانة. ثم انزلق نحو ماتفي، وجثى على ركبتيه، ماتفي يصرخ فزعًا: العدو يهجم! العدو يهجم! سنحرق! سنحرق! وأجاب صاحب الحانة بغضب: لن تُحرق يا ماتفي! أنت في مأمن، أنا هنا! ماتفي! وضل يهزه بعنف، ثم احتضنه بشدة، وربت عليه. وسرت رعشة بكاء خفيفة فيه، تبعتها صرخات ألم وبكاء مرير من ماتفي، وانهمر المخاط من أنفه، والدموع من عينه، وجعل يشتم: هؤلاء الملاعين، لم يصدقوني! لكن أنت تصدقني أليس كذلك؟!

وأجاب بكل حنان محاولًا إخفاء بكاءه الصامت: نعم، أصدقك يا ماتفي! أصدقك! وضل محتضنًا إياه لفترة من الزمن، حتى هدأ ماتفي، وقام من تلقاء نفسه، كان ينظر للأرض حزينًا، لا يريد الحديث، جمع أشياءه، كيس قماشي يجمع فيه حاجياته، رمحه، وبعض قطع الخشب التي هشمها.

وسار مبتعدًا... "ماتفي" ناداه صاحب الحانة، وأردف: تعال يا ماتفي. وقَدِمَ ماتفي مطأطئ الرأس، تناول صاحب الحانة مشروبًا معلبًا، وقدمه لماتفي وأضاف بعض النقود البسيطة وقطعة من كعك الزبيب على المشروب، رفض ماتفي في البداية أخذها. لكن إصرار صاحب الحانة أجبره على أخذها، فنحنى بلطف شديد، دون أن ينبس ببنت شفة،

واكتفى بالشكر عن طريق تعابير وجهه وعينيه، ثم خرج من الحانة واصطك الرمح ببابها، فعاد واعتذر على ذلك، ووجه صاحب الحانة يده مودعًا ماتفي.

- المسكين. قال صاحب الحانة محدثًا يهوذا.
- أنت رجل طيب.
- لماذا؟
- كيف لماذا؟ لقد ساعدت هذا المجنون، ثم... كيف تسمحون له أن يعيش بينكم، وجوده وهو في حالته هذه ستسبب فوضى ورعبًا للقرية، من يدري ما قد يفعل برمحه هذا؟!
- أعتذر أيها السيد عن هذا، لكن، فالأمر بعيد كل البعد عما تقول.
- لماذا؟!
- لأن الرجل ليس بمجنون، إنه ليونيد!
- لكنه ابن ليونيد! ليونيد والده...
- لا، بل ماتفي هو ابنه! أسم ابنه ماتفي ليونيدوفيتش. ليونيد هو هذا الرجل الذي خلته مجنونًا..
- يعني أن هذا المجنون هو ليونيد؟!
- نعم..
- وأين ابنه عنه؟
- لقد انتقل لجوار ربه! (نظرة صادمة على وجه يهوذا) وأردف: كان ابنه ماتفي جنديًا في الجيش الوطني، يعمل كحارس على حدود

سيبيريا، وكان يرسل لوالده رسائل وصور عديدة لمغامراته وأيامه هناك، وفي أحد الأيام انقطع عن ذلك، ظن ليونيد أن ابنه ماتفي انشغل أو لم يقدر على الكتابة له، لكن بعد مرور أربعة أيامٍ تقريبًا، وصلت جثة ابنه الطاهرة، وبزته مليئة بالدماء، هل ترى تلك التي يرتديها ليونيد؟ هي نفسها التي مات فيها ابنه! في ذلك اليوم، بكى، لدرجة أبكت معه كل من حضر جنازة ابنه، وحين دفنا ابنه، رمى بثيابه، وارتدى ملابس ابنه ماتفي، ومن يومها قرر أن يعيش ويكمل حياة ابنه، لقد مات هو وعاش ابنه!

- لكن هذا ضرب من المستحيل! قال يهوذا غاضبًا.
- لا يا سيدي! إن في هذه الدنيا أناس وهبوا أنفسهم للآخرين، حبًا وكرامة، بلا مقابل، لشدة ولعهم فيهم، أرادوا أن يعيشوا بدلهم، ألا تُنسى ذكراهم، أن يُمحوا من التاريخ في سبيلهم، وليونيد وابنه ماتفي، أحدهم. إنني أخشى على ليونيد من هذا العالم القاسي، من أن يستغل طيبته وجهله! من أن يُنسى معروفة ويدنس..

كان كلام صاحب الحانة يرن في أذن يهوذا طوال الوقت، ما جعله يترك المكان، ذاهبًا لأعماله الخاصة، وأن يترك هذه الحانة بذكرى طيبة عن ليونيد أو عن "المحارب ماتفي" أطيب المحاربين وأشجعهم.